ميخائيل نعيمه - على ضريح رفيق

أيّهاالرفيقالحبيب
ما أفصحك ساكتاً ، وأعياني متكلماً ! وما أحراك بالوعظ وأحراني بالصمت والإصغاء!لست أبكيك ، لأنك حيث أنت في غنى عن الدموع . فأنت حيّ في وجداني كما أنّك حي في وجدان البقاء . وإن يكن في عيني دموع فأنا أحق بها منك . لأنّك قد تجرّدت من شهواتك . أمّا أنا فلا أزال في مهبّ شهواتي كذرّة في مهبّ الريح . ولقد تركتَ مطامعك على الفراش الذي لفظتَ عليه آخر أنحابك . أمّا أنا فلا زال أذهب إلى فراشي فأجد مطامعي تحت وسادتي . وأقوم من فراشي فألبسها بين طيات ثيابي . وأجلس إلى مكتبي فألاقيها بين محابري وأوراقي . ولقد نزعتَ خوف الموت . أما أنا فلا أزال قصبة مرتجفة على سبيل الموت والحياة لا ، ولست أحزن عليك ، لأنّي أجدر بحزنك عليّ منك بحزني عليك . وكيف أحزن وأنا أقول مع الرسول : ((يا إخوة لا تحزنوا كمن لا رجاء لهم)) ؟
ولست أعدّد صفاتك ، لأني أجهل صفات نفسي . لكنّ في الكون سجلاً يحفظ صفاتي وصفاتك وصفات كل بشر . وأنا قاصر عن استيعابه . لذلك أُحجم أن أُقيم من نفسي حَكَماً على خيرك وشرّك . وأنّى لي ذلك وأنا أجهل شرّ الحياة وخيرها ؟ ها أنت في لحدك . وأنا واقف على حافّة لحدك . فما الفرق بيننا ؟
إن جسماً أعطتكهُ الأرض تسترجعهُ اليوم الأرض . وكأنها يوم أعطتك إياه قطعت على نفسها ميثاقاً أن تتغذى به وتُغذّيه . لكنها لم تجعله هبة أبدية لك . بل تركت لنفسها الحقّ باسترداده حين تشاء . ولقد برّت بوعدها فغذتك بأثمارها ، وعطّرتك بأزهارهاوظلّلتك بأشجارها.
واليوم تستعيد جسمك إلى حضنها لتغذي به أعشابها وأزهارها وأشجارها
أما أنا ، فلغاية لست أدركها ، لا تزال هذه الأرض تتغذى بجسمي وتغذيه .
وستأتي ساعتي فتكفّ الأرض عن تغذية جسدي وتأخذه غذاء لها.
لقد عاد جسمك إلى الأرض . ولا حيف في ذلك ولا غبن . أما روحك التي انبعثت من الروح الكبرى فالأرض أضيق من أن تسعها . وأضعف من أن تدّعيها.
لقد زالت عن عينيك غشاوةٌ لا تزال على عينيّ فأنت ــ حيث أنت ــ ترى ما لا ها هي القبور من حولك .أراه ، وتسمع ما لا أسمعه ، وتشعر بما لا أشعر به معشبة مزهرة . فهل هي تبكي أم هي تضحك ؟ لعمري لا هي ضاحكة ولا هي باكية. بل ماثلة لقوّة الوجود التي لا تعرف فرحاً ولا حزناً . ولا عدلاً ولا ظلماً.
ها هي السماء قد أمطرتنا في هذا الصباح مدراراً . فأين القطرات التي هبطت من السحاب ؟ لقد تغلغل بعضها في التراب . وتصاعد بعضها إلى الجوّ . ولكنّ يداً خفيّة ستعود بها من مخابئها ، إن لم يكن اليوم فغداً ، إلى البحر الكبير الذي

.انفصلت منهُ
ونحن ، مَن نحن ، إلّا قطرات انفصلت من بحر الوجود الأعظم ؟ ومهما تقادمت
.بها الغربة ، لا بدّ لها من العودة إلى البحر الكبير ، إلى حضن خالقها
لا ، لست أبكيك ولا أحزن عليك ، لأنّك حيّ في وجداني كما أنت حيّ في وجدان
.البقاء
!ولا أودّعك الوداع الأخير . بل أقول ـ إلى اللقاء يا أخي ، إلى اللّقاء

زاد المعاد
ميخائيل نعيمه